توطئة

يتطلَّب التعرض بالبحث لإشكالية الطائفية في المجتمع الإسلامي من الأطراف كافَّة الالتزامَ بتبنٍّ جديٍّ لمنهجية علمية تسعى إلى دراسة التحديات والمناخات الاجتماعية والسياسية الدينية التي أدت إلى نشوء الطائفية، وذلك انطلاقًا من التسليم والإقرار بأن دعاوى الحدِّ من النزاع الطائفي السُّني-الشيعي لا يُقصَد منها القضاء على مذهبٍ أو تنازل أحدٍ عن هويته بقدر ما هي دعوة إلى إيجاد ساحة تلاقٍ مشتركة بين الطرفين تمكِّنهما من تقليص هذه النزاعات ومنع استخدامها داخليًّا أو خارجيًّا في تشرذم الأُمَّة وإضعافها، وهدر إمكانياتها البشرية والمادية. ويستدعي هذا الهدف الجراءة والموضوعية في التصدّي لأعمق السلبيات عند كلا الطرفين تجاه الآخر بموضوعية، بوصف ذلك منطلقًا لرسم مسارات العمل التي تواجه الواقع المتشرذم بطموح التعايش المشترك الإيجابي.

وهكذا فإن المعالجة الجادة للطائفية تتطلب ابتداءً فهمَ المناخات التي أدت إلى تكوينها سياسيًّا واجتماعيًّا ودينيًّا، والأهم من ذلك الإقرار بأن هذه المناخات لا تزال تلعب دورًا حاسمًا في تعزيزها سلبيًّا، مُمثَّلة في تضخُّم روح الكراهية والشحن والصراع البغيض، مما يستدعي التركيز على دراسة تأثيرها في الفكر الديني والسياسي للمسلمين؛ كونها أبرز وأخطر ظاهرة سياسية دينية في تاريخنا وحتى اليوم. ومع ذلك، لم تحظ بالاهتمام المناسب، ولم يتم تتبع جذورها وتقييمها كنقطة انطلاقٍ لأي معالجة جدية، مما يستلزم الفهم والتحليل الجاد للتداخل بين العوامل الدينية والاجتماعية والسياسية في تشكيل هذه الظاهرة التي أفرزت روايتَيْن لنشأة الطائفية: حيث تفسرها **الرواية الأولى بأنها تجسيد ورواية لخلاف سياسي مدني وبشري** أنتج ضغوطًا وصراعًا اجتماعيًّا وسياسيًّا حول السلطة، جرى تأطيره بقراءة وبصياغات تاريخية ودينية لمضامينه ومسيرته بهدف تدعيم الأطروحات السياسية لأطراف الحالة وإضفاء الشرعية عليها وتطهيرها من صياغتها ودوافعها البشرية.

وفـي المقابـل، **ترى الرواية الأخرى أن هذا التاريخ والصراع في حقيقته هو تمثيل وتجسـيد لمسـيرة معتقـد دينـي وفقهي لـدى الطرفين، حيـث يؤمن كل طـرفٍ منهما بمنظومة فكرية ممتدَّة على المستوى العقدي والسياسي**، ويرى نفسه الممثِّل الحقيقي للإسلام، وأن الآخر منحرف عن جوهر الدين، بل يبالغ البعض ويعتبره مؤامرة على الإسـلام الحقيقي، مما قاد إلى حالة من التمايز والاختلاف الديني العقدي الطائفي وتبادل الاتهامات بتزوير التاريخ وتحريف الدين.

وفي ظل هذه السـياقات، يجب دراسـة الطائفية بالتركيز في تحليلها على أدبيات لحظة التأسيس وولادتها بوصفها كتلة وإرادة اجتماعية وسياسية شعبية جمعية تسعى إلـى تحقيـق مقاصـد الديـن من العدالـة والحقـوق، وخاصةً في الشـق السياسـي، ثم بوصفها نتيجة لمعطيات مختلفة من حيثُ بداية هذه الكتلة بالتمايز السـلبي الداخلي فكريًـا وسياسـيًّا إلـى مجاميع وفصائـل عدَّة. مما يسـتدعي أن يُقرأ مسـار هذه الحالة برؤيـة متكاملة انطلاقًا من إرادات التأسـيس وتقاطعـات التلاقي والافتراق، مع بحث المناخات والظروف التي غذَّت هذه المسارات وحدَّدتها، أملًا أن يكون ذلك مدخلًا إلى فهم تطورها وتحولاتها التاريخية، وأداة ومنهجًا للبحث في سياسات التقارب أو إمكانيـة التعايـش، ولا سـيما فـي ظـل ضعـف الخطـاب الدينـي والمنظومـة الفقهية المؤطـرة لظاهـرة الاختـلاف والتباين فـي فكرنـا الإسـلامي. ومن ثَـمَّ فمـن المُلحِّ الاهتمام بدراسـة مفاصل صناعة الطائفية المذهبية تاريخيًّا وفرضياتها وظواهرها مع تجـاوز الحـالات الشـاذة والاسـتثنائية مـن الأطروحـات أو الممارسـات الفرديـة والجزئيـة، خاصـةً أمام زحام الشـعبوية الطائفيـة الانتهازية وضخامتهـا، التي تحاول الهيمنة على الرأي العام.

وإذ نركِّـز في هذا البحث على الخلاف السُّـني الشـيعي؛ فذلـك لأننا نراه الصيغة الطائفيـة الأكثـر خطورةً في الواقع العربي الإسـلامي المعاصر. لكـن المعالجة التي سـنقدِّمها، أي «فكـرة المواطنـة»، كإطـار لاسـتيعاب التعدُّديـة والاختـلاف بجميـع أشـكاله وأنواعـه، هي حلٌّ لمختلف الاسـتقطابات الطائفية، سـواء كانـت مذهبية أو دينية أو إثنية...

ما الطائفية؟

في إطار محاولة فهم الطائفية ودراستها، يجب الانطلاق من الإيمان بأن التباين والتعدُّدية الإنسانية سُنَّة فِطريَّة، فقد وُجِدَ الاختلاف منذ أن خلق الله تعالى الإنسانَ على هذه الأرض، سواء في الجنس أو العِرق أو المعتقد. وقد اقترنت الاختلافات بين البشر في معظم المراحل التاريخية بالصراعات التي تعدَّدت أسبابها، إما إثنية أو دينية أو سياسية أو اقتصادية. وقد كانت هذه الاختلافات ولا تزال مصدر تهديدٍ لاستقرار الدول التي تتشكَّل من طوائف متعدِّدة؛ بسبب صعوبة التوفيق بينها والخروج بقرارات تراعي كافة الحقوق والمتطلبات الاجتماعية والسياسية للمواطنين، وهو ما يتطلب بناء رؤية ثقافية متكاملة تُسهِم في تفكيك القيم المضادة لقيم تقبُّل الآخر[١]. ومن هنا تبرز **الطائفية بوصفها إشكالية متعلقة بكيفية تمثيل جميع الطوائف على الساحة الاجتماعية والسياسية**، وقدرة النظام الاجتماعي والسياسي الحاكم على استيعاب التعدُّدية المذهبية من دون الإضرار بأي حقٍّ من حقوق طائفة من الطوائف[٢].

ويُقصَد بالطائفية في اللغة: «الفرقة والجماعة من الناس يجمعهم مذهبٌ أو رأيٌ يمتازون به عمَّن سواهم»[٣]، كما تُعرف بأنها «التعصُّب لطائفة معيَّنة»، والنظام الطائفي هو «نظام اجتماعيٌّ تقوم فيه المجتمعات على أُسسٍ دينيةٍ اجتماعيةٍ ويُقسم فيه المجتمع إلى طبقات مختلفة»[٤]. هذا، وقد عرَّف **قاموس كامبريدج** الطائفية بأنها «دعم قويٌّ جدًّا للمجموعة الدينية أو السياسية التي تنتمي إليها، مما قد يسبِّب مشكلات بين المجموعات المختلفة»[٥]. ويذهب البعض إلى تعريف الطائفية بأنها

---

(١) محمد محفوظ، **التربية على الحرية**، (بيروت: منشورات ضفاف، ط١، ٢٠١٨م)، ص١٦٨.

(٢) للمزيد راجع: عزمي بشارة، **الطائفة – الطائفية – الطوائف المتخيلة**، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٨م).

(٣) محمد خليل باشا، **الكافي: معجم عربي حديث**، (بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٩٩م).

(٤) المرجع نفسه.

(5) **Cambridge Dictionary**, Meaning of Sectarianism, https:/ / dictionary.cambridge.org/ dictionary/ english/ sectarianism

«ظاهرة نفسية ودينية واجتماعية واقتصادية وسياسية في الوقت نفسِه. أما درجة تأثير هـذه المظاهـر فيها فتختلف بالنسـبة للحقبـة التاريخية وبالنسـبة لهيمنـة إحدى هذه المظاهر على المظاهر الأخرى»[٦]. ويُعرِّف **معجم أكسفورد** الشـخص الطائفي بأنه «**الشـخص الـذي يتبـع بشـكل متعنـت طائفـة معينـة**»[٧]، ويُعَـدُّ هـذا أكثـر التعاريف المنضبطة[٨].

الطائفة لا تعني الطائفية

ومـن أجـل ضبط تعريف صحيـح للطائفية، يجب التسـليم بدايةً بـأن **الطائفة غير المذهب، وأن الطائفية بما تُمثِّله من موقف في الجماعة المذهبية شـيءٌ مختلفٌ عن التعلُّـق بالمذهـب**. فبخـلاف المذهـب، كان وجود الطائفـة يتعلَّق بتوطُّنِهـا في دولة واحـدة بوصفهـا أحـد المكوّنات الدينيـة أو المذهبية لهـذه الدولـة، إلا أن النزاعات السياسـية قـد أدت إلى صبـغ المذهب بالصبغة الطائفية، ممـا أدى إلى خللٍ في أحد مكونات الدولة، هذا الخلل هو ما بات يفاقمه اليوم إلغاء الحدود وسـهولة التواصل بين البشـر أفرادًا وجماعاتٍ بفعل وسـائل التواصل والنشـر المعاصرة دونما حساب لموانعَ سيادية من أي نوع[٩].

ولذلـك سـعى البحـث في **القسـم الأول** للمرور بعجالـة على المسـيرة التاريخية والفكريـة الإسـلامية بالوصـف والتحليل، إيمانًا بـدور الفكر والحـدث الاجتماعي

---

(٦) فـؤاد شـاهين، **الطائفيـة في لبنـان: حاضرها وجذورهـا التاريخية والاجتماعيـة**، (بيروت: دار الحداثة، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م)؛ برهان غليون، نقد مفهوم الطائفية، **الحوار المتمدن**، العدد ١٨٤٠، ٢٠٠٧م.

(7) **Oxford Learner's Dictionaries**, sectarianism, https:// www.oxfordlearnersdictionaries.com/ definition/ english/ sectarianism?q=sectarianism

(٨) للمزيد راجع: عزمي بشارة، الطائفية السياسية في العالم العربي، **برنامج في العمق**، الجزيرة، ١٢ ديسمبر ٢٠٠٩م، على الرابط: https:/ / aja.me/ qr9ss

(٩) أحمـد بيضـون، للطائفيـة تاريخ: في شـروط تشـكُّل الطوائف بما هي وحدات سياسـية، في: مجموعـة مؤلفيـن، **المسـألة الطائفيـة وصناعـة الأقليات في الوطـن العربي**، بيـروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٧م)، ص١٦.

والسياسي في فهم الطائفية وصناعتها بتطويع الموقف والمرويَّة التاريخية لخدمة قضايا الصراع والتنافس. ومن ثَمَّ قُسِّمت هذه المسيرة التاريخية إلى **حقبتين تاريخيتين**: الحقبة التأسيسية من لحظة السقيفة في عام ١١هـ/ ٦٣٢م حتى بدايات القرن العاشر الهجري، الذي شهد نشأة الدولة الصفوية في عام ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م، وتحوُّل الدولة العثمانية إلى دولة خلافة. وأما الحقبة الثانية فهي ما تلى ذلك إلى العصر الحديث والمعاصر، وما أنتجته من منظومات وكيانات دينية وسياسية. **ويأتي هذا التقسيم اعتمادًا على المسار الزمني لمحطات تطور نظريات الفكر والسياسة المشكّلة للمدارس المذهبية، وبالأخص منها نظريات علاقة المجتمع بالسلطة السياسية في الفكر السُّني، ونظرية الإمامة الإلهية الاثني عشرية في الفكر الشيعي.**

وجاء **القسم الثاني** تحت عنوان «الحيرة القاتلة في ظل النظرية المغيبة»، ويسعى للمقاربة والاشتباك مع أطروحات الخروج من هذا المأزق الطائفي الذي يمزق الأُمَّة، وذلك بالرصد والتحليل بهدف إعادة تركيب الوعي الديني والتاريخي تجاه فهم أوسع للحالة المذهبية، وذلك بالتركيز على بُعْدين: **الأول** هو تفكيك المفاهيم والثقافة المذهبية المعمقة للفصل بين الطائفتَيْن عقديًّا وفقهيًّا وسياسيًّا من خلال إصلاح ديني ضد الغلو والخرافة الدينية، ويتناول **البعد الثاني** برامج وآليات المعالجات الاجتماعية والسياسية المعاصرة، أو ما يُسمَّى «فقه المواطنة»، في محاولة لنقل النقاش الطائفي ومبادئه ومرتكزاته الثقافية قدر الإمكان من ساحات الصراع السياسي والاجتماعي إلى حاضناتٍ مدنية وعلمية مؤسسية وموضوعية في مناهجها، ومُمثِّلة للمجتمعات في أهدافها وتركيبتها التأسيسية. وتناولنا في **الخاتمة** المداخل الضرورية واللازمة لتجفيف منابع صناعة الطائفية.